آيـة من ..

كتاب الله ..

« ذلك . وَمَن يُعظِّم حُرُماتِ اللهِ فهوخيرٌ لهُ عِندَ رَبِّهِ ، وأُحِلَّتْ لكُمُ الأنعامُ إلّا ما يُتْلى عليكُم فاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ واجْتَنِبُوا قَولَ الزُّورِ ، حُنفاءَ لِلهِ غيرَ مُشرِكين به . وَمَن يُشرِكْ بِاللهِ فكأنّما خَرَّ مِن السَّماءِ فتخطفه الطَّيرُ أو تهوى به الرِّيحُ في مَكانٍ سَحيقٍ » ..

وتعظيم حرمات الله يتبعه التحرج من المساس بها . وذلك خير عند الله . خير في عالم الضمير والمشاعر ، وخير في عالم الحياة والواقع . فالضمير الذي يتحرج هو الضمير الذي يتطهر .

○ والحياة التي ترعى فيها حرمات الله هي الحياة التي يأمن فيها البشر من البغي والاعتداء ، ويجدون فيها مثابة أمن ، وواحة سلام ، ومنطقة اطمئنان ..

○ ولما كان المشركون يحرمون بعض الأنعام ــ كالبحيرة والسائبة والوصيلة والحامي ــ فيجعلون لها حرمة ، وهي ليست من حرمات الله بينما هم يعتدون على حرمات الله ــ فإن النص يتحدث عن حل الأنعام إلا ما حرم الله منها ــ كالميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به : « وَأُحِلَّت لَكُم الأنعَامُ إلَّا مَا يُتلى عَلَيْكُم » . وذلك كي لا تكون هنالك حرمات إلا لله ، وألا يشرع أحد إلا بإذن الله ، ولا يحكم إلا بشريعة الله .

○ وبمناسبة حل الأنعام يأمر باجتناب الرجس من الأوثان . وقد كان المشركون يذبحون عليها وهي رجس ــ والرجس دنس النفس ــ والشرك بالله دنس يصيب الضمير ويلوث القلوب ويشوب نقاءها وطهارتها كما تشوب النجاسة الثوب والمكان .

ولأن الشرك افتراء على الله وزور ، فإنه يحذر من قول الزور كافة : « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأوثانِ واجْتنِبوا قَولَ الزُّورِ » ..

○ ويغلظ النص من جريمة قول الزور إذ يقرنها إلى الشرك .. وهكذا روى الإمام أحمد ـ بإسناده عن فاتك الأسدي قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح ، فلما انصرف قام قائما فقال : « عَدَلَتْ شهادةُ الزُّورِ الإشْراكَ بِاللهِ عزَّ وَجَلَّ » ، ثم تلا هذه الآية ..

○ إنما يريد الله من الناس أن يميلوا عن الشرك كله ، وأن يجتنبوا الزور كله ، وأن يستقيموا على التوحيد الصادق الخالص : « حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ » .. ثم يرسم النص مشهدا عنيفا يصور حال من تزل قدماه عن أفق التوحيد ، فيهوى إلى درك الشرك . فإذا هو ضائع ذاهب بددا كأن لم يكن من قبل أبدا :

« وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » ..

إنه مشهد الهوىّ من شاهق « فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ » . وفي مثل لمح البصر يتمزق « فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ » أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار : « أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ » في هوة ليس لها قرار !

والملحوظ هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ (بالفاء) وفي المنظر بسرعة الاختفاء .. على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير ..

وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله ، فيهوى من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء . إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها . قاعدة التوحيد . ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه ؛ فتتخطفه الأهواء تخطف الجوارح ، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح . وهو لا يمسك بالعروة الوثقى ، ولا يستقر على القاعدة الثابتة ، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه .

" في ظلال القرآن "

الشهيد : سيد قطب
